مجلة جامعة الملك سعود، م٤، الآداب (١)، ص ص٣-٢٤ (١٤١٢هـ/١٩٩٢م).

خليفتان ناقدان: دراسة موثقة

عثمان صالح الفريح

أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية

(ورد بتاريخ ٢٤/٧/١٤١٠هـ، وقبل للنشر بتاريخ ١٦/١١/١٤١٠هـ)

ملخص البحث. يكشف هذا البحث عن الوجه الآخر لشخصيتين لعبتا في التاريخ دورًا بارزًا، هما شخصيتا الخليفتين عمر بن الخطاب وعبدالملك بن مروان. وإذا كان المؤرخون قد أماطوا اللثام عن الوجهين التاريخي والسياسي اللذين برز فيهما هذان الخليفتان، فإن مهمة هذا البحث الكشف عن الوجه النقدي عند الرجلين. ولقد اخترتُهما من بين قائمة الخلفاء لأنهما يتمتعان بذوق عربي سليم، وبآراء حصيفة في الشعر ونقده، هذا فضلا عن توافر الأخبار التي تواترت في كتب الأدب عن عناية الرجلين بالشعر يحفظان قدرا غير قليل منه، ويستشهدان بمعانيه في الأوقات المناسبة. ولم يقتصرا على هذا المنحى، بل كان حبهما للشعر يدفعهما إلى أن يطلبا من الناس أن يتعلموا الشعر، وذلك لأن الشعر كان «ديوان علم العرب، ومنتهى حكمهم، به يأخذون، وإليه يصيرون» كما يقول عمر. فإذا تذكرنا أن الأمة العربية كانت في جاهليتها أمة أمية أدركنا ماذا تعنيه كلمة عمر هذه، ولهذا أيضا ندرك لماذا كان عبدالملك بن مروان يذاكر أهل بيته بالشعر، ويطلب من مؤدبي أولاده أن يؤدبوهم بالشعر المتخير لأن في تأديبهم بالشعر صقلا لألسنتهم، وتلقيحا لأذهانهم، وخاصة أن النفس العربية متعلقة بالشعر أشد التعلق، ولا أدل على ذلك من قول الرسول ﷺ «العرب لا تدع الشعر حتى تدع الإبل الحنين.»

لقد تصفحت الجم الغفير من كتب التراث التي تُعنى بالأدب والشعر والنقد، واستخلصت منها جملة صالحة من الأخبار ساعدتني على تقديم هذه الصورة للنقد عن هذين الخليفتين، فوجدتها تكمل صورة النقد التي قدمها الدارسون عن النقاد المتخصصين في النقد والأدب في العصرين الراشدي والأموي

وحاولت أن أعرض في هذا البحث ما عند الرجلين من بضاعة نقدية، دون التحيز لهما، أو إعطاء الأحكام المبالغة التي تتسم بها الدراسات التي تتعاطف مع شخصيات المدروسين، فإن أسعفني منهجي الذي اصطنعته فهذا ما طمحت إليه، وإن قصرت عن الغاية المرجوة فهذا ما أسعفتني به الأخبار التي جادت بها كتب التراث.

مقدمة

الحديث عن الخلفاء موقعه كتب التاريخ والسير، وتحليل أفكارهم ودراسة منازعهم موضعه كتب التحليل النفسي ودراسات التحليل السياسي، وعندما ينبري باحث لتقصّي شخصية خليفة من الخلفاء يتوخى أن تأخذ دراسته هذا المسار، ولكن الخلفاء، والعظماء منهم بشكل خاص، كانوا متعددي جوانب الثقافة، متنوعي أركان المعرفة، فهم فضلا عن الجوانب السياسية والعسكرية التي هي من طبيعة عملهم الأساسية يجمعون معارف فرعية كالأدب والشعر والنقد.

ولعل أبرز الخلفاء الذين تنطبق عليهم هذه المقولة، والذين كانوا يتمتعون بالذوق الأدبي المصفًّى والنظرة النقدية الثاقبة الخليفتان عمر بن الخطاب وعبدالملك بن مروان. ولقد صادفتني في أثناء تصفّحي للكثير من كتب التراث الأدبي والتاريخي جملة صالحة من الأخبار النقدية لهذين الخليفتين، وجدت أنها تصلح مادة علمية لمقال نقدي يجمع في ثناياه آراء هذين الخليفتين في الأدب عامة وفي الشعر خاصة، وهما فضلا عن الذوق المصفًّى الذي كانا يشتركان فيه فلديهما القدرة على تركيز ما تذوقاه وصياغته على شكل حكم نقدي يرقى إلى أجود الأحكام النقدية التذوقية. ومن هنا رأيت اختيارهما من بين الكثرة الكاثرة من الخلفاء، وآثرت دراسة الكمية الكبرى من الأخبار النقدية المأثورة عنهما، وإني لعلى يقين أن هذه الدراسة تناولت جانبا بكرا لم تمتد إليه يد من قبل. ووضعت هذا الجانب تحت دائرة الضوء لاستجلاء الصورة المتممة لتاريخ النقد في العصرين الراشدي والأموي، وهما من أخصب العصور الأدبية، ولكن الصورة الشاملة للنقد في هذين العصرين مازالت غير مكتملة لضياع الكثير الكثير من الأخبار النقدية في تلكم الحقبتين.

عمر بن الخطاب

يذهب علماء النفس إلى أن العبقرية في العبقري تتجلى بمظهرين: الأول عام شامل والثاني خاص جزئي، وتوضيح ذلك، أنهم يقصدون بالعام الشامل أن هذا النمط من

العبقرية يعم كل جوانب حياة العبقري، ويلون بالنبوغ والعبقرية كل ما يصدر عنه من أفعال وأقوال وقرارات وآراء، فكل ما يصدر عن مثل هذا الإنسان ينبع من هذه العبقرية الشاملة لكل سلوكه، المسيطرة على كل تصرفاته، ويقصدون بالمظهر الخاص الجزئي أن هذا النمط من العبقرية يتجلى بجانب واحد من جوانب نشاط الإنسان الفكري أو الفني أو السلوكي، كأن يكون الإنسان عبقريا في جانب من جوانب الفن كالشعر أو الرسم أو الموسيقى، أو في جانب من جوانب العلم كالفلسفة في السياسة أو الإدارة أو الاقتصاد، وفي هذا النوع من الرجال تكون العبقرية مقصورة على جانب واحد لا تتعداه إلى سائر الجوانب الأخرى في هذه الشخصيات.

وعلى ضوء من هذا التقسيم النفسي للعباقرة نريد أن نتساءل عن موقع عمر بن الخطاب بين أولئك الأفراد الذين شهد لهم بالعبقرية، ولن يطول تساؤلنا، لأن الدراسات المستفيضة التي تناولت جوانب مختلفة من شخصية عمر تجمع على أن عمر عبقري من النمط الأول، الذي توصف عبقريته بالعموم والشمول، لأنه كان عبقريا في السياسة، عبقريا في الإدارة، عبقريا في صدق الرؤية وبُعد النظر، عبقريا في معالجة الأمور الحياتية والاجتماعية، ولعل الجانب الذي نركز عليه من جوانب عبقريته المتعددة هو عبقريته في تذوق الشعر وفهم الأدب وممارسة النقد.

كنا نتوقع أن انشغال عمر بتوطيد أركان دولة فتية، وبسط الأمن في نواحيها التي غدت مترامية، وتنظيم شؤونها الإدارية والمالية والعسكرية حسب مقتضيات العقيدة الجديدة سيشغل عمر عن الشعر قولا وتذوقا ونقدا، ولكن واقع الأمر يشهد بخلاف ذلك، فعمر بن الخطاب على الرغم من كل اهتماماته بالخلافة وتوطيد أركان الإسلام في مجتمع مازال حديث عهد بالردّة على هذه العقيدة الجديدة، ورغبة طامحة لتوسيع رقعة الدولة الناشئة خارج حدود الجزيرة العربية، أقول على الرغم من كل هذه الاهتمامات ظل الشعر هاجسا كبيرا من هواجس هذه الشخصية الكبيرة. صحيح أن ما رُوي عن عمر من الشعر المنسوب إليه لا يرقى به إلى مرتبة الشعراء الفحول، ولكنه مارسه ممارسة هاوٍ لا متخصص، ممارسة مَن عنده بذور الموهبة الشعرية التي ورثها منه ولداه عاصم وحفصة إذ كانت لهما

محاولات شعرية، غير أن ظروف عمر لم تسمح له بتوجيه كل عبقريته الأدبية لقول الشعر، ومع ذلك ظل يتذوقه كأشد ما يكون العربي تذوقا للشعر، ويؤمن بالمقولة التي تذهب إلى أن «العرب لا تدع الشعر حتى تدع الإبل الحنين.»[١] أو ليس هو القائل: «كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه؟»[٢] أو ليس هو القائل أيضا: «من خير صناعات العرب الأبيات يقدمها الرجل بين يدي حاجته، يستنزل بها الكريم، ويستعطف بها اللئيم؟»[٣] ويبدو أن مخزون عمر من الشعر العربي كان كبيرا، وكانت ذاكرته تستحضر البيت المناسب في اللحظة المناسبة، فلهذا ما إن يعرض له أمر من الأمور إلا أنشد فيه شعرا. عن أبي خالد الغسَّاني، قال: حدثني مشيخة من أهل الشام أدركوا عمر، قالوا: لما استخلف عمر صعد المنبر، فلما رأى الناس أسفل منه حمد الله، ثم كان أول كلام تكلم به بعد الثناء على الله ورسوله:

وَهَوِّن عليكَ فإنَّ الأمور   بكفِّ الإله مقاديرها
فليس يؤاتيك منهيها   ولا قاصر عنك مأمورها[٤]

وذكر لعمر قول الأوسية (وهي امرأة حكيمة من الأوس) وقد سئلت: أي منظر

(١) تنسب هذه المقولة للرسول ﷺ في حديث رواه الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، *إحياء علوم الدين* (القاهرة: دار الشعب، د.ت.)، ص١٢٧.

(٢) محمد بن سلام الجمحي، *طبقات فحول الشعراء*، تحقيق محمود شاكر (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٢م)، ص٢٤.

(٣) انظر: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، *البيان والتبيين*، تحقيق وشرح عبدالسلام هارون، ط٤ (القاهرة: مطبعة الخانجي، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م)، مج٢، ص٢٥٦؛ أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، *الكامل في اللغة والأدب*، تحقيق أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاتة (القاهرة: دار نهضة مصر، د.ت.)، مج١، ص٤٦؛ أبو الحسن سلام بن سلام المالقي، *الذخائر والأعلاق في آداب النفوس ومكارم الأخلاق* (القاهرة: مطبعة وهبي، ١٢٩٨هـ)، ص١٦٦؛ أبو القاسم حسين بن محمد الراغب الأصبهاني، *محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء* (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٦١م)، مج١، ص٨.

(٤) المتقي القرشي، علاء الدين علي بن حسام الدين عبدالملك، *منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال* (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٦٩م)، مج٦، ص٣٠٥.

أحسن؟ فقالت: قصور بيض في حدائق خضر، فأنشد عند ذلك عمر بيت عدي بن زيد العبادي:

كَدُمى العَاجِ في المَحَاريبِ أو كالبيضِ في الرَّوضِ زَهرهُ مستَنيرُ[٥]

وقال الأصمعي: بينما عمر في بعض أسفاره على ناقة صعبة قد أتعبته، إذ جاءه رجل بناقة قد ريِّضت، وذلِّلت، فركبها، فمشت به مشيا حسنا، فأنشد هذا البيت:

كأن راكبها غصنٌ بمروحةٍ إذا استمرت به، أو شارب ثمل

ثم قال: أستغفر الله. قال الأصمعي: فلا أدري أتمثل به أم قاله.[٦]

وعن سفيان الثوري، قال: بلغني أن عمر كان يتمثل:

لا يغرنكَ عشَاء سَاكنٌ قد يُوافي بالمنيَّات السَّحر[٧]

وهناك أخبار كثيرة من هذا القبيل تناثرت في كتب الأدب والتاريخ والسير إن دلت على شيء فإنَّما تدل على اطلاع عمر الدقيق على الشعر العربي وتذوقه وقدرته على التمثل به في اللحظة المناسبة، لأن في هذا الشعر ديوان علم العرب ومنتهى حكمهم، به يأخذون، وإليه يصيرون.[٨] ومن هنا جاء حرص عمر بن الخطاب لا على أن يتعلم الشعر وإنما حرص على أن يتعلمه الناس، لأن الشعر في العصر الجاهلي وصدر الإسلام كان الوعاء الوحيد الحامل لثقافة العرب. ولما كانت الأمة العربية أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب، وليس لها كتاب مدون؛ لذلك فقد قام الشعر الذي كان يروى شفاها، ويحفظ عمدا وقام بدور الوعاء الذي يستوعب فكر الأمة، ويخلد ثقافتها، وينقل تجربتها من جيل إلى جيل. فعندما آلت أمور هذه الأمة الأمية إلى عمر حرص على أن يربيِّ أولادها التربية المثلى التي تعدهم لتحمل

---

(٥) الجاحظ، *البيان والتبيين*، مج١، ص٥٣؛ المبرد، *الكامل*، مج٢، ص٤٨.

(٦) أبوبكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، *الاشتقاق*، تحقيق عبدالسلام هارون (القاهرة: مطبعة الخانجي، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م)، مج١، ص٣٣؛ أبو الفرج الأصبهاني، علي بن الحسين، *الأغاني*، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية (بيروت: د.ت.)، مج٨، ص١٤٤.

(٧) أبوالفرج عبدالرحمن بن محمد بن الجوزي القرشي، *مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب*، تحقيق زينب إبراهيم القاروط، ط٢ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٢م)، ص١٦٢.

(٨) الجمحي، *طبقات فحول الشعراء*، ص٢٤.

التبعات الجسام التي تنتظرهم كأولاد أمة فتية ناشئة ورأى بثاقب بصره أن هذه التربية المثلى تجمع بين تربية الجسد وتربية الفكر، فكتب في أول عهده بالخلافة إلى الأمصار: «علِّمُوا أولادَكم العوم والفروسيّة، ورَوُّوهم ما سار من المثل وما حَسُن من الشعر.»[٩] ففي الفروسية تربية للجسد، وفي رواية الشعر والمثل تربية وتثقيف للفكر، وقد أكد على الجانب التثقيفي عندما انساح المسلمون خارج الجزيرة العربية، وبدأوا يحتكون بأمم مثقفة ببقايا الثقافات العريقة، فأحب عمر لأبناء العرب أن يتثقفوا بعنصر الثقافة الجامع لكل فصائل الإنسان العربي، وهو الشعر: لذا كتب إلى أبي موسى الأشعري: «مُرْ من قبلك بتعلم الشعر، فإنه يدل على معالي الأخلاق، وصواب الرأي ومعرفة الأنساب.»[١٠] وقبل أن يحمل عمر هذا الشعار الثقافي ليطبقه على أبناء المسلمين بدأ فطبقه على ابنه عبدالرحمن، إذ قال له: «يا بني انسب نفسك وأمهاتك تصل رحمك، واحفظ محاسن الشعر يكثر أدبك، فإن من لم يعرف نسبه لم يصل رحمه، ومن لم يعرف الشعر لم يؤد حقا، ولم يقترف أدبا.»[١١] بدأ بابنه وانطلق إلى جميع أبناء الأمة مؤكدا رأيه بوجوب تثقيف أبناء الأمة بالشعر الذي أول فائدة فيه دعوته إلى مكارم الأخلاق، قال: «تحفَّظوا الأشعار، وطالعوا الأخبار فإن الشعر يدعو إلى مكارم الأخلاق ويعلم محاسن الأعمال، ويبعث على جميل الأفعال ويفتق الفِطْنَة، ويشحذ القريحة، ويحدو على ابتناء... وادخار المكارم، وينهى عن الأخلاق الدنيئة ويزجر عن مواقع الريب، ويحض على معالي الرتب.»[١٢] هذا ما أراده عمر للناشئة من حفظ

---

(٩) أبوعمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر القرطبي، *بهجة المجالس وأنس المُجالس*، تحقيق محمد مرسي الخُولي (القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م)، مج١، ص٧٦٧.

(١٠) أبوعلي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، *العمدة في صناعة الشعر ومحاسنه وآدابه*، تحقيق محيي الدين عبدالحميد (بيروت: دار الجيل، ١٩٧٢م)، مج١، ص٢٨.

(١١) أبوزيد محمد بن الخطاب القرشي، *جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام*، تحقيق محمد علي الهاشمي (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، مج١، ص١٥٨.

(١٢) المظفر بن فضل العلوي، *نضرة الإغريق في نصرة القريض*، تحقيق نهى عارف الحسن (دمشق: مجمع اللغة العربية، ١٣٩٦هـ/ ١٩٨٦م)، ص٣٥٧.

للشعر، ولكن هل كل شعر يتضمن هذه المكارم والمحاسن التي يدعو إليها؟ إن عمر يؤمن بأن في الشعر الغث والسمين، ومثل ذلك في الأحاديث والأخبار، ولذلك دعا الناس إلى وجوب الاختيار والاصطفاء، فقال: «أرووا من الشعر أعفه، ومن الأحاديث أحسنها، ومن النسب ما تواصلون عليه، وتعرفون به، فرب رحم مجهولة قد عرفت فوصلت، ومحاسن الشعر تدل على مكارم الأخلاق، وتنهى عن مساويها.»(١٣)

واضح جدا أن عمر يؤكد في هذه الكلمة على مبدأين من مبادىء الإسلام وهما: مكارم الأخلاق وصلة الرحم، فصلة الرحم تعرف عن طريق معرفة النسب ومعرفة الأخبار المتصلة بالنسب؛ أما مكارم الأخلاق فمستودعها الشعر فهو ديوان العرب ـ كما سلف ـ وما حرص عمر على الشعر الذي يحض على مكارم الأخلاق إلا تمشياً مع مبادىء الدين الجديد ولذلك كان عمر يطمح إلى شعر يسير في ركاب العقيدة ويخدمها ولا يتعارض معها، ومن هنا جاء إجلاله لمثل هذا النوع من الشعر الذي يحض على التقوى، فكان يأمر برواية قصيدة لبيد التي يقول فيها:

إن تقوى ربنا خير نفل   وبإذن الله ريثي والعجل

ومن أجل هذا أعجب بموقف لبيد الذي عاش نصف عمره في الجاهلية وعاش نصف عمره في الإسلام، وكان شعره في الإسلام مغايراً لشعره في الجاهلية، متمشيا مع مبادىء الدين الجديد؛ لننظر هذا الخبر: «كتب عمر بن الخطاب إلى عامله المغيرة بن شعبة بالكوفة أن استنشد من عندك من شعراء مصرك ما قالوه في الإسلام، فأرسل إلى الأغلب العجلي أن أنْشِدْني، فقال:

لقد طلبتَ هيِّنا موجودا   أرَجَزاً تريدُ أم قَصيدا؟

ثم أرسل إلى لبيد، فقال: إن شئت ما عفي عنه، يعني الجاهلية، قال: لا، فانطلق فكتب سورة البقرة، وقال: أبدَلَني الله هذه في الإسلام مكان الشعر. فكتب المغيرة إلى عمر،

(١٣) القرشي، *جمهرة أشعار العرب*، مج١، ص١٥٩.

فنقص من عطاء الأغلب خمس مائة، وزادها في عطاء لبيد فكتب إليه الأغلب في ذلك فردَّ عليه الخمس مئة وأبقى لبيدا على زيادته.»[١٤] ومثل ذلك موقفه من سحيم عبد بني الحسحاس، فقد أعجب بمطلع قصيدته البائية التي يقول في مطلعها:

عميرة، ودِّع، إن ترحَّلت غازيا   كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا

وعلَّق على هذا المطلع بقوله: «لو قدمت الإسلام على الشيب لأجزتك.»[١٥] وهي الصيغة التي سمع عمر رسول الله ﷺ يتمثل بها من شعر سحيم، وأما بقية الأبيات الغَزِلة في قصيدة سحيم فقد روى صاحب *الأغاني* أن سحيما أنشده بقوله:

توسِّدني كفاً وتَثني بمعصَم   عليَّ، وتحوى رجلَها من ورائِيا

فقال له عمر: إنك ويلك لمقتول.»[١٦] ولعل هذا الخبر الأخير يسلمنا إلى موقف عمر من الأغراض الشعرية التي كانت معروفة في زمنه، كالغزل والهجاء والمدح والرثاء.

أما الغزل وهو تعبير الشاعر عن عاطفة إنسانية يحس بها، فعمر لم يقف منها موقف المعادي ما دامت لا تتعارض مع القيم الدينية، والتقاليد الكريمة، ولكنها إذا انحرفت لتعبر عن القيم الخسيسة والشهوات الفاجرة فالخليفة بصفته مسؤولا عن أخلاق أبناء الأمة وبناتها، فإنه سيقف معارضاً لها، مقوِّما لمعوجِّها، وخاصة إذا كانت من النوع الذي نادت به مدرسة امرىء القيس من التشهير بالفجور، وهتك أسرار المحصنات، فهذا مناقض للمبدأ الإسلامي الذي يقول: «وإذا بليتم بالمعاصي فاستتروا.» لهذا نجد عمر يشدد النكير على المتغزلين غزلا فاضحا كغزل سحيم في البائية الآنفة الذكر، وكغزل تلك الفتاة المراهقة التي مرَّ بها عمر وهي تنشد شعراً تفوح منه رائحة الشهوة والفجور فتقول:

هل من سَبيلٍ إلى خَمْرٍ فأشرَبَها   أم من سَبيلٍ إلى نَصرِ بن حجَّاجِ ؟

فيسأل عمر عن نصر بن حجاج هذا فيقال له إنه فتى وسيم فتن بنات المدينة بجماله، ويبدو

---

(١٤) عبدالقادر بن عمر البغدادي، *خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب*، تحقيق عبدالسلام هارون، ط٢ (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٧٩م)، مج٢، ص٢٤٨.

(١٥) الأصبهاني، *الأغاني*، مج٢٢، ص٢٠٦؛ جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، شرح *شواهد المغني* (بيروت: لجنة التراث، د.ت.)، مج١، ص٣٢٧.

(١٦) الأصبهاني، *الأغاني*، مج٢٠، ص٣.

أنـه لم يكن حميد السـيرة، فيستدعيه عمر ويأمره بقص شعره فتَظل عليه ملامح الفتنة، فيضطر عمر إلى نفيه حفاظا على أعراض المسلمين.

هذا موقف عمـر الصُّلب من فن الغـزل إذا انحـرف الفن عن مقاصده الفطرية ومسيرته الطبيعية فما هو موقفه من سائر الأغراض الشعرية الأخرى؟ تنبئنا أخبار عمر أنه لم يكن راضيا عن فنّيْن آخرين: المدح والهجاء.

أما المدح فلأنه لا يريد للرجل المسلم أن يظل، في رزقه، عالة على الآخرين، لا يريد للإنسان المسلم أن يتكسب بمدح هذا ويذم ذاك، وإنما يتكسب بعرق جبينه. أليس هو القائل: «أنْظُر إلى الرجل فيعجبني، فأسأل عن صنعته، فإذا قيل لي: لا صنعة له سقط من عيني، إنَّ عمر في موقفه الرافض للمدح يؤكد موقف الرسول منه، فقد أثر عن الرسول ﷺ أنه قال: احثوا التراب في وجوه المدَّاحين.»(١٧) وليس هذا الموقف كراهية لفن المدح في حد ذاته، وإنما لأن الرسول وخليفته كانا يُصرّان على أن لكل فرد في الدولة المسلمة الناشئة دوراً فاعلاً يجب أن يؤديه. وأما الهجاء فقد كرهه عمر، لأنه كان عنصر فرقة بين أعضاء الأمة التي حرص الفاروق على اتحادها وإزالة دواعي البغض والكراهية بينها، ولعل روعة موقفه من هذا الفن تتجلى يوم هجا النجاشي الحارثي بني العجلان فاستعدوا عليه عمر.(١٨) والحوار الذي دار بين عمر وبني العجلان يشهد بحنكة عمر، ويدل على أن الخليفة حاول أن يستل برفق الغضب الذي أثار بني العجلان، ومثل هذا الموقف وقَفَه عمر من الحطيئة يوم تصدّى لهجاء الزبرقان بن بدر، ولكنه عندما أدرك أن في طبع الحطيئة نزعة للهجاء، وأنه يوظف هذه النزعة في سبيل الارتزاق وإعالة أسرة كبيرة عمد عمر إلى شراء أعراض المسلمين منه، فرتب له مرتبا من بيت مال المسلمين ليقي المسلمين شر لسانه، ولولا أنّ كُتب الأدب استفاضت في موقف عمر من الحطيئة لذكرنا جانبا منها، ولكن هذا الموقف انتهى

(١٧) أبـوعبـدالله محمد بن إسماعيل البخاري، *الأدب المفرد*، تحقيق محمد هشام البرهاني (أبوظبي: المطبعة العصرية، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، ص١٤٩.

(١٨) أبـومحمـد عبـدالله بن مسلم بن قتيبـة الـدينـوري، *الشعر والشعراء*، تحقيق أحمد محمد شاكر (القاهرة: دار المعارف، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م)، ص٣٣١.

بسكوت الحطيئة بعد شراء عمر لأعراض المسلمين مما أنطق الحطيئة بقوله:

وأخذتَ أطرافَ الكلامِ، فلم تدعْ شتماً يضرُّ ولا مديحا ينفعُ
وحميتَني عرضَ اللئيمِ، فلم يخفْ ذمّي، وأصبَح آمناً لا يفزعُ[19]

أما إذا التفتنا إلى بقية جوانب الشعر وأغراضه التي لا تثير الأحقاد والضغائن بين المسلمين فإننا نلمس موقف عمر ليس الراضي أو المسالم لها، بل يتعدى الرضا إلى التأثر العميق الذي تتجاوب نفسية الفاروق له، وينفعل بالشعر الذي يتغلغل في ثنايا النفس الإنسانية أشد الانفعال، قيل إنه سمع أعرابيا يرثي ابنه الذي مات صغيرا، ويقول:

يا غائباً ما يَثُوبُ من سفرهْ عَاجَلهُ موتُه على صِغرِه
يا قرَّةَ العَينِ كُنتَ لي أَنَسا في طُولِ ليلي نَعم وفي قِصرِه
ما تقعُ العَينُ حيثُما وَقَعَتْ في الحيِّ منه إلا على أثره
شَرِبْتَ كأساً، أبُوكَ شَارِبُها لابدَّ منهَا له على كِبَرِه
يشرَبُها والأنامُ كلّهم من كَان في بَدوِهِ وفي حَضَرِه
فالحمْدُ لله لا شَرِيكَ لَهُ في حُكْمِهِ كَان ذَا وفي قَدَرِه
قدَّر مَوتاً على العِبَاد، فَمَا يَقْدَرُ خَلْقٌ يَزِيدُ في عُمُرِهِ

فبكى عمر حتى بلَّ لحيته، ثم قال: صدقت يا أعرابي.[20]

ويبدو أن جوانب تأثر عمر بهذا الشعر كانت متعددة، لم تكن مقصورة على التعاطف مع هذا البدوي فقط وإنما استثار دموعه ذكر الموت والقدر المحتوم على العباد جميعا، مثل هذا الشعر البعيد عن المدح والهجاء والغزل كان يدخل إلى كوامن نفس عمر، وأعمقه أثرا في نفسه شعر الرثاء، فقد رُوي عن عمران بن عمار العبدي قوله: «صليت مع عمر بن الخطاب الصبح، فلما انفتل من صلاته إذا هو برجل قصير أعور، متنكبا قوسا، وبيده

---

(١٩) الأصبهاني، *الأغاني*، مج٢، ص١٨٩. وفي هذه الصفحة من *الأغاني* مجموعة الأخبار التي مرت قبل قليل.

(٢٠) علي الطنطاوي، وناجي الطنطاوي، *أخبار عمر وعبدالله بن عمر* (دمشق: دار الفكر العربي، ١٩٥٩م)، ص٣٢٤.

هراوة، فقال: من هذا؟ فقال: متمم بن نويرة، فاستنشده قوله في أخيه، فأنشده:

لعَمَــري، ومــا دَهْـري بتَـأبـين مَالـك ولا جَزعٌ ممَّا أَصَــابَ فأَوْجَـعَـا
لَقَــدْ كَفَــنَ المِـنْهَـالُ تَحتَ ثيابِــهِ فَتَــىً غيرُ مِبْطـانِ الـعَشِـيَّات أرْوَعَـا

حتى بلغ إلى قوله:

وكــنَّـا كنــدمَــانَيْ جَذِيمَــة حِقْـبَـةً من الـدَّهــر حتَّى قِيل لن يَتَصَـدَّعـا
فلمَّا تَفَـرَّقْـنَـا كأنِّي وَمَـالِـكـاً لِطُول اجْتِـمَاعٍ لم نبِـتْ لَيْلَةً مَعَـا

فقال عمر: هذا والله التأبين، رحم الله زيد بن الخطاب (وهو أخو عمر، كان أسن منه، وقد أسلم قبله، واستشهد في حروب الردة باليمامة) إني لأحسب أني لو كنت أقدر على أن أقول الشعر لبكيته كما بكيت أخاك.»[٢١]

لقد تحدثنا في الصفحات السابقة عن جانب مشرق من جوانب عمر وهو حبه للشعر وحثه على تعلمه وموقفه من بعض الأغراض الشعرية أو بعض الشعراء الذين عاصروه، وكل ما سبق من حديث على الرغم من أنه يكشف عن شخصية عمر الأدبية، إلا أنه يكشف أيضا عن شخصية عمر الناقد الذي يتذوق الشعر وينفعل به، يقبل منه جانبا، ويرفض جانبا آخر، يرفض الجانب الذي يتنافى مع عقيدته وسلوكه واتجاهه الفكري. وهناك جوانب أخرى من شخصية عمر الناقد لمَّا نبينها بعد، منها رأيه النقدي في بعض الشعراء الذين سبقوه من الجاهليين، والذين طوقت شهرتهم الآفاق كامرىء القيس وزهير والنابغة الذبياني ولبيد. وكان هؤلاء حديث المجتمع المثقف، فليس معقولا أن يكون عمر بمعزل عن معرفة هؤلاء وليس معقولا ألا يكون له فيهم رأي نقدي معين. فهذا العباس بن عبدالمطلب يسأل عمر عن منزلة امرىء القيس من شعراء الجاهلية، فيجيبه عمر: «امرؤ القيس سابقهم، خسف لهم عين الشعر، فافتقر عن معان عور أصح بصر،»[٢٢] يريد بذلك أن امرأ القيس كان رائدا في الشعر، حفر للشعراء عين الشعر، حتى ظهرت واستنبط ما فيها من ماء، وأنه فتح أصح بصر عن معان عور، فإذن قد مهّد امرىء القيس طريق الشعر ومجال القول للشعراء، فهذه الحقيقة النقدية لا يكاد يشك فيها أحد من الذين يعرفون شعر الملك الضليل.

(٢١) الأصبهاني، *الأغاني*، مج١٥، ص٣٠٨.
(٢٢) ابن رشيق، *العمدة*، مج١، ص٤٩.

هذا عن امرىء القيس، وإن لم يكن شاعر عمر المفضل لاعتبارات أخلاقية وسلوكية. ولكن شاعره المفضل ـ على ما ذكرت كتب الأدب والنقد ـ هو زهير بن أبي سُلمى، فقد كان عمر معجبا به، لأن شخصية زهير شخصية رزينة حكيمة، ليست كشخصية امرىء القيس العابثة اللاهية، ففي الجانب الأخلاقي والعقلي يتميز زهير عن امرىء القيس، ومن هنا كان ألصق بنفسية عمر، ومن هنا جاء تفضيل عمر لزهير على كل شعراء الجاهلية. روى أبوزيد القرشي في *الجمهرة* أن «عمر كان جالسا في قومه يتذاكرون الشعر، فيقول بعضهم: فلان أشعر، ويقول الآخرون: لا، بل فلان أشعر، فقيل: ابن عباس بالباب، قال عمر: قد أتاكم ابن بجدتها، وأعلم الناس بها، فلما جلس بعد تسليمه، قال له عمر: من أشعر الناس يابن عباس؟ قال: زهير يا أمير المؤمنين فقال عمر: ولم ذاك؟ قال ابن عباس: لقوله حيث مدح هرما وقومه بني مرة بن عوف، حيث يقول:

قَومٌ أبُوهُمْ سنَانٌ حينَ تَنْسُبُهم ... طابَوا وطابَ من الأولاد ما ولَدوا

لو كانَ يقعُد فوقَ الشّمسِ من أَحَدٍ ... قومٌ بأوَّلِهم أو مَجْدِهِم قَعَدوا

قال عمر: صدقت يابن عباس.»(٢٣)

وإعجاب عمر بزهير جعله دائم اللهج بشعره، يردده في جلساته وخلواته، كان يردد قول زهير:

فإنَّ الحَقَّ مقْطَعهُ ثَلاثٌ ... أَدَاءٌ أو نِفَارٌ أو جَلاَءُ

ويسمى زهيراً «قاضي الشعراء» بهذا البيت، ويقول: لو أدركته لوليته القضاء.(٢٤) ولعل أهم رأي من الآراء النقدية التي قرأناها لعمر، بل قرأناها عن الشعر الجاهلي والإسلامي؛

---

(٢٣) القرشي، *جمهرة أشعار العرب*، مج١، ص١٩٠؛ أحمد بن محمد بن عبدربه الأندلسي، *العقد الفريد*، تحقيق أحمد أمين وإبراهيم الأبياري وعبدالسلام هارون (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٨م)، مج٥، ص٢٩١.

(٢٤) ابن رشيق، *العمدة*، مج١، ص٥٦؛ صلاح الدين خليل بن أيبك الصَّفَدي، *تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون*، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٦٩م)، ص٩٨.

الحوار الذي كان بين عمر وابن عباس، وهما في طريقهما إلى الجابية، ذكره صاحب *العمدة* فقال: «عن ابن عباس أنه قال: قال لي عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): أنشِدني لأشهر شعرائكم، قلت: من هو يا أمير المؤمنين؟ قال: زهير، قلت: ولم كان كذلك؟ قال: كان لا يعاظل بين الكلام، ولا يتبع حوشيه، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه.»(٢٥) ودقة هذا الخبر ترجع إلى أن عمر تناول، في هذه الكلمات الموجزة أهم عناصر العمل الشعري وهي (اللفظة) الممثلة بقوله: لا يتبع حوشي اللفظ ـ وفي خبر آخر وحشيه أي غريبه ـ والتركيب الممثل بقوله: لا يعاظل بين الكلام، والمعاظلة تراكب أجزاء الكلام ببعضها، والمعاني الممثلة بقوله: لا يمدح الرجل إلا بما فيه، وهذا الذي يشير إليه النقاد المعاصرون باسم (الصدق الفني) فنقد عمر ـ على اقتضابه ـ تناول الألفاظ والمعاني والتراكيب.

وإذا تركنا رأي عمر في زهير، مع أن له في كتب المصادر آراء أخرى في زهير وشعره(٢٦) وانتقلنا إلى رأيه النقدي في النابغة الذبياني وجدناه يجعله «أشعر شعراء قومه» نستدل على ذلك بالخبر الذي تواتر في كتب الأدب عن الحوار بين عمر ووفد غطفان، روت كتب الأدب أن عمر «خرج وببابه وفد من غطفان، قال: أي شعرائكم الذي يقول:

حَلَفتُ فلم أتْرُكْ لِنَفسِكَ ريبَةً ... وليسَ وَرَاءَ الله للمَرْءِ مَذْهَبُ
لَئِنْ كُنتَ قد بُلّغتَ عني رسَالَةً ... لمبلغُكَ الوَاشي أغشُّ وأكذبُ
ولستَ بمستَبقٍ أخاً لا تَلُمُّه ... على شَعَثٍ. أيُّ الرِّجَال المهذَّب؟

---

(٢٥) ابن رشيق، *العمدة*، مج١، ص٩٨؛ ورُوي هذا الخبر في أكثر من مصدر: الأصبهاني، *الأغاني*، مج٩، ص١٣٩؛ الجمحي، *طبقات فحول الشعراء*، ص٢٩؛ عبدالرحيم العباسي، *معاهد التنصيص* (القاهرة: المطبعة البهية، ١٣١٦هـ)، مج١٠، ص١١٠؛ القرشي، *جمهرة أشعار العرب*، ص٣٢. وفي بعض المراجع تختلف الأبيات التي أنشدها ابن عباس لزهير، روت بعض هذه المصادر أن ابن عباس أنشد قول زهير:

ولو أن حمدا أخلد الناس أخلدوا ... ولكن حمد الناس ليس بمخلد

فقال عمر: ذاك أشعر الشعراء... إلى آخر الخبر.

(٢٦) انظر حواره لابنة زهير وسؤالها عن حلل هرم بن سنان التي كساها لأبيها، وحواره لبعض ولد هرم بن سنان: الأصبهاني، *الأغاني*، مج١٠، ص ص٣٠٤، ٣٠٥؛ ابن رشيق، *العمدة*، مج١، ص٨١.

قالوا: النابغة يا أمير المؤمنين. قال: فمن الذي يقول:

خطاطيفُ حجنٌ في حبال متينة تمد بها أيد إليك نوازعُ
فإنك كالليل الذي هُوَ مُدْرِكي وإنْ خِلْتُ أنَّ المُنتأى عَنْكَ وَاسِعُ

قالوا: النابغة يا أمير المؤمنين، قال: فمن القائل:

إلَى ابن مُحرِّقٍ أعمِلتُ نفسي وَرَاحِلَتِي وَقَدْ هَدَتِ العُيونُ
فألغيتَ الأمَانةَ لم تخنها كذلكَ كانَ نُوحٌ لا يَخونُ
أتيتُكَ عَارياً خَلِقاً ثِيابي عَلى خَوْف تَظنُّ بي الظُّنُونُ

قالوا: النابغة يا أمير المؤمنين، قال فمن القائل:

إلا سُلَيانَ إذ قَالَ الإلهُ لَهُ قُمْ في البَرِيَّة فاحْدُوهَا عَنِ الفَنَدِ

قالوا: النابغة يا أمير المؤمنين، قال: فهو أشعر شعرائكم.»(٢٧)

وأعتقد أن عمر لم يجامل وفد غطفان ولم ينشد رضاهم عندما وصف شاعرهم بأنه أشعر الشعراء أو أشعر العرب، لأن عمر بمنزلة من القوة والسلطان لا تجعله يصانع أو يجامل. وإنما جعل النابغة أشعر الشعراء لاقتناعه بشاعرية الرجل، هذه الشاعرية التي قوامها المعاني الدينية التي وردت في شعر النابغة، وهي تلتقي بمُعْتَقَد عمر كقوله: «وليس وراء الله للمرء مذهب،» والمعاني الحكميَّة التي تلاقي قبولا كبيراً في نفس عمر كمعنى مداراة الصديق للإبقاء على صداقته الوارد في قول النابغة:

ولستَ بمستبقٍ أخا لا تلمّه على شَعَثٍ أي الرِّجَالِ المهذبُ

واستشهاد النابغة بسير الأنبياء والصالحين (كسليمان ونوح) وحتى بالصور الشعرية الجميلة التي تصور مشاعر الإنسان الخائف الفزع، كما في قوله:

خطاطيفُ حجنٌ. . . . .
فإنك كالليل. . . . .

(٢٧) القرشي، *جمهرة أشعار العرب*، مج١، ص١٩٣؛ الأصبهاني، *الأغاني*، مج١١، ص١٤، وفيه قال: «فهو أشعر العرب»؛ الجمحي، *طبقات فحول الشعراء*، ص٢٧؛ العباسي، *معاهد التنصيص*، مج١، ص١١٢.

وهذه الأبيات وضعها ابن قتيبة في تقسيمه الرباعي للفظ والمعنى في الصنف الأول الذي نعته بأنه «ما جاد لفظه وحسن معناه .»[٢٨]

فعمر ينطلق في نقده للشعر من قيم متوافرة في النص الشعري ، وليس فيها مجاراة أو محاباة ، وآراؤه في الشعر ونقده آراء حصيفة دقيقة تنطلق من الذوق العربي المُصفى ، وتعتبر مبكرة على عصره الذي عاش فيه ، والذي كانت تطلق فيه أحكام نقدية عائمة وسطحية ، وللهوى فيها نصيب كبير.

عبدالملك بن مروان

والخليفة الناقد الثاني هو عبدالملك بن مروان ، رابع الخلفاء الأمويين زادت خلافته على عشرين سنة ، وهو أحد ثلاثة خلفاء دامت خلافة كل واحد منهم حوالي عشرين سنة ، وإن كانت أطول فترة خليفة أموي هي خلافة عبدالملك ، وهؤلاء الخلفاء الثلاثة هم أقوى خلفاء بني أمية ، أولهم جاء في فترة تأسيس الدولة وبدايتها وهو معاوية بن أبي سفيان ، وثانيهم جاء في فترة ازدهار الدولة وأوسطها وهو عبدالملك بن مروان ، وثالثهم جاء في فترة ما قبل انقضائها وهو هشام بن عبدالملك .

ويتميز ثلاثة من خلفاء الدولة الأموية التي تعاقب على عرش الخلافة فيها أحد عشر خليفة بأن لهم مواقف حاسمة من الشعر والنقد ، وهم الخليفتان الأولان معاوية وعبدالملك يضاف إليهما الخليفة الأموي السابع عمر بن عبدالعزيز. وقد اتصف معاوية وعبدالملك بموقف واحد متناسق من الشعر، وهو شبيه بالموقف الإيجابي المؤيد للشعر الداعم لوظيفته التثقيفية كالذي وقفه عمر، على حين تفرد عمر بن عبدالعزيز بموقف سلبي من الشعر والشعراء في زمانه ، ولنبدأ بهذا الموقف السلبي الأخير، فالمعروف عن عمر بن عبدالعزيز أنه كان يؤثر دينه على دنياه في كل حركة من حركات حياته ، ومن هذا المنطلق نراه قد قرّب رجال الدين من مجلسه وأبعد رجال الشعر، وكان يعدل عن التمثل والاستشهاد بالشعر إلى التمثل

---

(٢٨) ابن قتيبة ، *الشعر والشعراء* ، مج ١ ، ص٢٥ .

والاستشهاد بالقرآن والحديث النبوي. وإذا كان شعراء البلاط الأموي كجرير والفرزدق والأخطل والراعي النمَيري وكُثَيّر قد لاقوا قبولا ومرعى خصيبا في بلاطات الخلفاء الأمويين السابقين فإنهم قد لاقوا جفاء وازدراء ومرعى جديبا في بلاط عمر بن عبدالعزيز. ونكتفي بخبرٍ واحدٍ من أخباره الكثيرة الدالة على هذا الموقف السلبي من الشعراء: «لما استخلف عمر بن عبدالعزيز وفد الشعراء إليه وأقاموا ببابه أياما لا يؤذن لهم... ثم دخل عدي بن أرطأة على عمر فقال: يا أمير المؤمنين الشعراء ببابك، وسهامهم مسمومة، وأقوالهم نافذة، قال: ويحك يا عدي، مالي وللشعراء؟ قال: أعزك الله أمير المؤمنين، إن رسول الله قد امتُدح وأعطى، ولك في رسول الله أسوة، قال: كيف؟ قال: امتدحه العباس بن مرداس فأعطاه حلة قطع بها لسانه، قال: من بالباب منهم؟ قال: عمر بن أبي ربيعة والفرزدق والأخطل والأحوص وجميل، قال: أليس هذا القائل كذا وهذا القائل كذا، وذكر لكل واحد منهم أبياتا تشعر برقة الدين، والله لا يدخل عليَّ أحد منهم، فهل سوى من ذكرت؟ قال: نعم، جرير، قال: أما أنه الذي يقول:

طرقَتْكَ صَائِدَةُ القُلوبِ، وليسَ ذَا ... وَقْتُ الزِّيارَةِ، فارجِعِي بسلام

فإن كان لابد فهو، فأذن لجرير، فدخل وهو يقول:

إنَّ الَّذي بَعَثَ النَّبي مُحَمَداً ... جَعَلَ الخِلافَةَ للإمَامِ العَادِلِ

إلخ.. الأبيات. فلما مثل بين يديه، قال: ويحك يا جرير، اتق الله، ولا تقل إلا حقا، فأنشأ جرير يقول:

أَأَذكرُ الجَهْدَ والبَلوى الَّتي نَزَلَتْ ... أَمْ قَد كَفَاكَ الَّذي بُلِّغتَ من خَبَري؟

كم باليمامة من شعثاء أرملة ... . إلخ

فقال: يا جرير، ما أرى لك فيها هاهنا حقا، قال: بلى يا أمير المؤمنين أنا ابن سبيل ومنقطع بي، فأعطاه من صلب ماله مئة درهم، وقال: ويحك يا جرير، لقد ولينا هذا الأمر، وما نملك إلا ثلاث مئة درهم، فمئة أخذها عبدالله، ومئة أخذتها أم عبدالله، يا غلام أعطه المئة الباقية، فأخذها وقال: والله لهي أحب ما اكتسبت إلي ثم خرج فقال له الشعراء: ما وراءك؟ قال: ما يسوؤكم، خرجت من عند أمير المؤمنين وهو يعطي الفقراء ويمنع الشعراء وإني عنه لراضٍ، وأنشأ يقول:

رأيتُ رُقَى الشَّيطانِ لا يَستَفِزُّه وقد كان شِيطَانِي من الجنِّ راقيا[٢٩]

غير أن هذا الموقف الرافض للشعر والشعراء وإن كان يتمشى مع وجهة نظر عمر بن عبدالعزيز في الحياة والحكم إلا أنه موقف متفرد مختلف عن موقف كل خليفة من السابقين واللاحقين، مع الاعتراف بأن عمر بن عبدالعزيز كان يتمتع بذوق مصفى في فهم أغراض الشعر ومراميه، فقد مرّ في ثنايا الخبر السابق ما يثبت ذلك، كما تناقلت كتب الأدب والأخبار طُرفا من حسن فهمه للشعر، لعل من أكثرها دلالة على ما نقول ما نقله ابن عبدالبر في *بهجة المجالس*.[٣٠]

ولو عدنا - بعد هذه الاستطرادة الموضحة - إلى الخليفتين الأمويين السابقين: معاوية وعبدالملك لألفينا نظرتهما الإيجابية المتناسقة للشعر، فقد سار معاوية وعبدالملك على ما سار عليه الرسول ﷺ والصحابة من كراهة شعر الهجاء والتشبيب[٣١] غير العفيف والمدح المفرط للتكسب،[٣٢] وأحبّا ما سوى ذلك، وحضّا الناس على تعلم الشعر، وأدّبا أولادهما على فصيح القول،[٣٣] فهذا معاوية يرى أن خير ما يتثقف به المرء بعد الكتاب والسنة فصيح الشعر، روى أبو أحمد العسكري في *المصون* أن «الحارث بن نوفل دخل بابنه عبدالله إلى معاوية، فقال: ما علمت ابنك؟ قال: القرآن والفرائض، فقال: روه فصيح الشعر، فإنه يفتح العقل، ويفصِّحُ المنطق، ويطلق اللسان، ويدل على المروءة والشجاعة.»[٣٤] ولهذه المزايا التي عددها معاوية في الشعر رغب عبدالملك أن يؤدب أولاده عليها، فلهذا أوصى الشعبي عندما دفع إليه أولاده فقال: «علمهم الشعر يمجدوا وينجدوا.»[٣٥] ولم يقصر هذه

(٢٩) جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، شرح *شواهد المغني*، مج١، ص١٩٧.

(٣٠) ابن عبدالبر القرطبي، *بهجة المجالس وأنس المُجالس*، مج٢، ص ص٢٨٥، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٣٨.

(٣١) ابن عبدربه، *العقد الفريد*، مج٥، ص٢٨١.

(٣٢) الراغب الأصبهاني، *محاضرات الأدباء*، مج١، ص٨١.

(٣٣) أبوأحمد الحسن بن عبدالله العسكري، *المصون في الأدب*، تحقيق عبدالسلام هارون، ط٢ (القاهرة: مطبعة المدني، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، ص١٣٦.

(٣٤) أبوأحمد العسكري، *المصون في الأدب*، ص١٣٦.

(٣٥) الإمام البخاري، *الأدب المفرد*، ص٣٨١.

النصيحة على أولاده ومؤدبيهم وإنما رغب للناس جميعا أن يتأدّبوا بالشعر ويتثقّفوا بالبيان، وخاصة أن رقعة المجتمع العربي أخذت في زمانه تتسع، وتتجاوز الجزيرة العربية إلى البلاد التي تجاورها، واختلط العرب بالعناصر الأعجمية وأصبح صفاء اللغة مهدّداً بالعجمة، يقول عبدالملك: «ما الناس إلى شيء من الأدب أحوج إلى إقامة ألسنتهم التي بها يتعاودون الكلام، ويتعاطون البيان، ويتهادون الحكمة، ويستخرجون غوامض العلم، ويجمعون ما تفرق منها، فإن الكلام قاضٍ يحكم بين الخصوم، وضياء يجلو الظُلَم، حاجة الناس إلى مواده حاجتهم إلى مواد الأغذية.[٣٦] ولحرص عبدالملك على الأدب والشعر كان يعقد له مجالس أدبية في منزله، يجمع فيها أهل بيته وولده، ويحيطهم بالأدباء والشعراء، ويطرح في هذه المجالس نماذج من الشعر الرصين لكبار الشعراء ويطلب من أولاده وأهل بيته أن ينقدوها[٣٧] ليتدربوا على تذوق الشعر وفهم مغازيه، ويتمكنوا من ناصية التمثل به في اللحظات المناسبة، ولكل هذه الاعتبارات حظي الشعر والشعراء عنده بمنزلة رفيعة، فمما يؤثر عنه أن الحجاج لما حرم الشعراء في أول مقدمه إلى العراق كتب إليه عبدالملك أن أجز الشعراء فإنهم يجتبون مكارم الأخلاق، ويحرضون على البر والسخاء.[٣٨] وقد كانت له ثلة من الشعراء المفضلين، يؤثر أشعارهم، ويأمر مؤدبي أولاده أن يختاروا لأهل بيته من جميل أشعارهم ليحفظوه، من هؤلاء الشعراء المفضلين الأعشى،[٣٩] وكُثَيِّر الذي كان عبدالملك يخرج لمؤدبي أولاده شعره مختوما يرويّهم إياه ثم يرده،[٤٠] والعُجَيْر السلولي الذي كان عبدالملك يؤكد على مؤدب ولده أن يحفظهم شعره لما فيه من الحضِّ على الحفاظ على القيم العربية التي استمر الأمويون في الحفاظ عليها، مثل هذه القيم أودعه العُجير في رائيته التي يقول فيها:

---

(٣٦) أسامة بن منقذ، *لباب الألباب* (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م)، ص٢٢٩.

(٣٧) الأصبهاني، *الأغاني*، مج١٢، ص٦٠؛ انظر فيها مذاكراته لأهل بيته في شعر امرىء القيس والأعشى وطرفة.

(٣٨) الراغب الأصبهاني، *محاضرات الأدباء*، مج١، ص٧٩.

(٣٩) القرشي، *جمهرة أشعار العرب*، مج١، ص٢٠٢.

(٤٠) الأصبهاني، *الأغاني*، مج٩، ص٢٣.

يَبِينُ الجَارُ حِينَ يَبِينُ عني ولم تَأنَسْ إليّ كِلاَبُ جَارِي
وتَظْعَنُ جَارَتي مِنْ جَنْبِ بَيْتِي ولم تُسْتَر بِسِتْرٍ مِنْ جِدَارِي
وتَأمَنُ أن أَطَالِعَ حِينَ آتي عليهَا، وهيَ واضِعَةُ الخِمارِ
كذلِكَ هَدي آبائي قديمًا توارَثَهُ النِّجارُ عن النِّجَارِ
فهديي هديُهم، وهُمُ افتَلُوني كما افتُلِي العتيقُ من المُهارِ[٤١]

وكان عبدالملك لطول خبرته بالشعر يعرف مواطن الشعر الجيد، سواء في الشاعر أو في القبيلة، وقد أورد له ابن عبدربه خبرا في *العقد الفريد* يعدد عبدالملك فيه القبائل المشهورة بقول الشعر.[٤٢]

ولعناية عبدالملك بن مروان بالشعر واحتفائه بالشعراء غدا بلاطه موئل الشعراء فوفد عليه جرير والأخطل والراعي وكثير وعبدالله بن قيس الرقيات وأرطأة بن سُهَية، وأيمن بن خُريم بن فاتك، وعمر بن أبي ربيعة، وجُرثومة الشاعر، والأقَيْشِر وأسيلِم بن الأحنف الأسدي، وشبيب بن البرصاء، والعجير السلولي والجحَّاف وغير هؤلاء.

وقد كانت له مع كل واحد من هؤلاء مجالسة ومذاكرة في الشعر ومعانيه ومقاصده، يستنشده شعره ويقارن بينه وبين شعر غيره وتنتهي هذه المقارنة إلى المفاضلة بين الشعراء، فقد كان الأخطل أحد ثلاثة الشعراء المشهورين في الفترة الأموية، فلما استنشده عبدالملك شعره في معنى من المعاني لم يعجبه تناوله لذلك المعنى وفضل عليه فيه شبيب بن البرصاء.[٤٣] وكذلك فاضل بين شاعر ثقيف في الجاهلية وشاعرها في الإسلام يزيد بن الحكم في معنى الشيب والشباب، ورجح معنى شاعر ثقيف الجاهلي. وكان في مجالسه يقارن بين الشاعرات سواء أكن قديمات أم محدثات، فمما يؤثر عنه أنه قارن بين شعر

---

(٤١) الأصبهاني، *الأغاني*، مج١٢، ص٧٥.
(٤٢) ابن عبدربه، *العقد الفريد*، مج٥، ص٣٧٣.
(٤٣) الأصبهاني، *الأغاني*، مج١٢، ص٢٨٠.

الخنساء وليلى أخت المنتشر بن وهب الباهلي في أيهما أدق وصفا لأخيها.[٤٤] والذي يتابع مقارنات عبدالملك بين الشعراء يدرك أن هذه المقارنات تصدر عن فهم دقيق لمعاني الشعر، وبصر بجزئياته، لا يقوى عليها إلا من حفظ الكثير من الشعر واطلع على صوره ودقائق مراميه، وكان هذا الاطلاع الواسع على الشعر يجعله يبدي إعجابه بمعاني بعض الشعراء كإعجابه بشعر القطامي، إعجابه جعله يقول بعد أن سمع شعره: «هذا والله الشعر.»[٤٥] كما أعجب بشعر جُرثومة الشاعر وفضله على شاعر بني أمية الكبير الأخطل، وقال للأخطل: «هذا المدح ويلك يابن النصرانية.»[٤٦] وفي معاني الشجاعة في الحرب حاور عبدالملك رجال مجلسه فيما قاله الشعراء الفرسان في التعبير عن الصبر عند اللقاء وأكثر الحاضرون من التمثل بشعر عمرو بن معدي كرب وعمرو بن الإطنابة، ولما انتهى القول إلى عبدالملك قال: أشجع العرب شعراً أربعة فرسان: عباس بن مرداس، وقيس بن الخطيم، وعنترة بن شداد، ورجل من مزينة، ولم يطلق هذا الحكم النقدي على عواهنه، وإنما راح يذكر لكل واحد منهم بيتا من عيون ما قاله في التعبير عن ذلك المعنى.[٤٧] وكثيرة مثل هذه الأخبار التي تطلعنا على ثقافة عبدالملك الشعرية وتوقفنا على مخزونه الكبير من أبيات الشعر المنتقاة التي يحسن التمثل بها في المناسبات المختلفة، وقد كانت حاسته النقدية المرهفة تجعله يميز جيد الشعر من رديئه، فيقول عن هذا البيت: هذا أشجع بيت، وهذا أهجى بيت،[٤٨] ولا يمنعه إعجابه بشاعر ذي شهرة واسعة أن يصارحه بعدم رضاه عن معنى تدنى عن جملة معانيه، فها هو ذا يقول لجرير عندما أنشده قصيدته الحائية التي مطلعها:

---

(٤٤) الأصبهاني، *الأغاني*، مج ١١، ص٢٦. وفيه أن المقارنة كانت بين الخنساء والدعجاء أخت المنتشر.

(٤٥) الأصبهاني، *الأغاني*، مج ٢٤، ص٥٠.

(٤٦) أبو أحمد العسكري، *المصون في الأدب*، ص٦٤.

(٤٧) حمزة الأصبهاني، *الدرر الفاخرة في الأمثال السائرة*، تحقيق عبدالمجيد قطامش (القاهرة: دار المعارف، د.ت.)، مج ١، ص٣٣٣.

(٤٨) أبوأحمد العسكري، *المصون في الأدب*، ص٢١.

أتصحـو أم فـؤادك غيـر صـاح

فيعترض عبدالملك عليه مبينا سوء هذا المطلع، ويعنفه على عدم توفيقه في هذا المطلع.(٤٩) كما نراه ينقد بعض عيوب قصيدة عبدالله بن قيس الرقيات على الرغم من إعجابه بها، فيقول له: «لقد أحسنت لولا أنك خنثت في القوافي.»(٥٠) ولو تتبع متتبع مثل هذه الأحكام النقدية الصادرة عن عبدالملك لألفى الشيء الكثير موزعا في ثنايا كتب الأدب والأخبار.

يتضح لنا من استعراض هذه الأخبار الموثقة لهذين الخليفتين: عمر بن الخطاب وعبدالملك بن مروان أنهما كانا على جانب كبير من رهافة الحس النقدي الصادر عن التوسع في معرفة الشعر ومقاصده الدقيقة، وأنهما بالإضافة إلى شواغل الخلافة ومتطلبات الحكم، والاهتمام الشديد بإدارة شؤون الخلافة التي كانت تتسع آفاقها يوما بعد يوم، أقول على الرغم من ذلك فإن هذين الخليفتين ظلا يعيران الشعر كل اهتمامهما، واهتمامهما بالشعر أنطقهما بجملة من الأحكام النقدية لا تعبر ـ فحسب ـ عن حسن تذوقهما وفهمهما للشعر، وإنما تعبر عن المرحلة المتقدمة التي بلغها النقد في زمنيهما، ولقد صدرت عنهما أحكام نقدية حصيفة تبز تلك الأحكام التي صدرت عن المتخصصين في النقد وفي علم الشعر في ذلك الزمان.

---

(٤٩) أبو عبدالله محمد بن عمران المرزباني، *الموشح*، تحقيق علي محمد البجاوي (القاهرة: دار نهضة مصر، ١٣٩٥هـ/ ١٩٦٥م)، ص٢٠١، انظر فيه نقد عبدالملك بن مروان لهذا المطلع ولأبيات سواه.

(٥٠) ابن قتيبة، *الشعر والشعراء*، ص٥٤٠.

Two Caliph Critics: Annotated Critical Study

Osman Saleh Al-Furrayh
Assistant Professor, Department of Arabic, College of Arts, King Saud University, Riyadh, Saudi Arabia

Abstract. The research reveals the other side of two personalities that played a prominent role in history: Omar Ibn El-Khattab and Abdul Malik Ibn Marwan. If historians have uncovered the political and historical aspects in which the two Caliphs excelled, the purpose of this research is to explore the critical aspect of the two men. I have selected them from the list of caliphs as they had a good Arabic taste and sound judgement of poetry and its criticism. Moreover, there is ample information recurring in literary books showing how the two men cared much for poetry. They used to memorize much of it and to quote the sense when it was appropriate. Apart from that, their love for poetry made them encourage people to learn poetry. As Omar put it, poetry was "the record of the Arabs' knowledge which had the final say and with which they used to abide."

When we remember that in pre-Islamic times, the Arab nation was illiterate, we realize what Omar's words signify. For the same reason, Abdul Malik Ibn Marwan used to address his family in poetry. He also asked his son's instructors to instruct them in selected poetry as this would train their tongues and fertilize their minds. The Arab soul is much attached to poetry, and nothing can prove that better than the Prophet's words (Peace Be Upon Him): "The Arabs will not give up poetry until the camel stops its yearning call."

I have gone through a lot of heritage books concerned with literature, poetry and criticism. I have obtained adequate information that helped me in presenting this picture of criticism about the two caliphs. I have found the picture complementing that presented by scholars about specialized critics in the two eras of the Orthodox Caliphs and the Umayyads. I have tried to introduce the critical stock the two men had, without bias or exaggerated judgement which characterise studies done in sympathy with the personalities studied. If the procedure I adopted has helped me, then I have achieved my aspirations. If I am short of the target, I have done the best I could.